٥ ـ القرآن الكريم
فى كتاب النثر الفنى
للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

ويلتحق بزعمه الذى زعم لعرب الجاهلية من نهضة علمية سياسية اجتماعية الخ زعمُه أن نشأة علوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض قديمة ، أى إنها نشأت قبل الإسلام لا بعده[1] وهو يبنى هذا الزعم أيضاً على ما افترض من أن القرآن أثر جاهلى

وفى الحق أن جميع ما ارتأى وما افترض فى كتابه هذا متصلاً بالقرآن لا يتسق ولا يستقيم فى بحث باحث إلا على فرض فى استعمال (المماريض) بقوله في شأنها : « الصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ؛ فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته ، صار صادقاً كيفما كان لفظه »

هذا ولم يتفرد متصوفة المسلمين بالإغراب والتعمية فى أقوالهم ـ تقية منهم ومداراة للعامة وظلمة الحكام ـ وإنما شاركهم فى ذلك أهل التصوف من سائر الملل . وسبق هؤلاء جميعاً أهل التفلسف من قدماء الأمم . وقد مرت عبارة قدامة فى رموز أفلاطون ، والقفطى فى كتابه : « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » يقول عن أفلاطون هذا إنه ألف كتباً كثيرة مشهورة فى فنون الحكمة وذهب فيها إلى الرمز والإغلاق

وكان هيرقليس اليونانى يسمى (الفيلسوف المعمّى) لأنه كان لا يتكلم إلا بالألغاز . وينسب مثل هذا إلى أبيذقليس . قال القفطى : ومن الفرقة الباطنية من يقول برأيه ، وينتمى فى ذلك إلى مذهبه ـ يعنى مذهب الشك فى المعاد ـ ويزعمون أن له رموزاً قلما يوقف عليها[1] وهى فى غالب الظن إيهامات منهم .

(جرجا — يتبع) محمود عزت عرفة

(١) الجزء الأول صفحة ٤٧

أن القرآن من كلام عربى من العرب . وهو لم يصرح بهذا كما صرح بإنكار إعجاز القرآن من ناحية الأسلوب ، إلا أن وصفه القرآن بكل ما لا يصدُق إلا على نتاج البيئة دليل قاطع فى الموضوع

اقرأ له زيادة على ما قدمنا قوله عن القرآن من صفحة ٤٥ « فلننظر إذن أهو كتاب طبيعي ، أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة » وقوله « فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولعوا بالجرى فيه وهو عصر الدولة العباسية ، وأن يجعلوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه ، وأن يحدثونا ما هى الصلات الأدبية والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين تراهما مجسمين فى القرآن . هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية » . فهذا نص لا يقبل شكاً ولا يحتمل تأويلاً فى أن صاحب الكتاب يرى القرآن من كلام العرب تأثر بما تأثروا أو يصح أن يكونوا تأثروا به من صلات أدبية اجتماعية جاءتهم من الخارج ، وأن ما امتلأ به فى زعمه من « الزخرف والصنعة المحكمة » ليس طبيعياً كالذى تراه فى الزهر والشجر والشفق والسماء ، ولكنه مكتسب مجلوب من الخارج ! ونسى أنه لم يقل بأن القرآن أثر جاهلى إلا لينفى عن العرب أن يكونوا « أخذوا طرائق النثر الفنى عن الفرس واليونان » ، فهو يسلبهم كل ما أعطاهم ، بل يشكك حتى فى عبقرية القرآن لو كان من صنع عربى ووضعه ، كما ترى من قوله « هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية » . والتقليد هنا ليس هو تقليد عربى لعربى ، ولكن تقليد عربى لأعجمى ، لأن الصلات الخارجية التى يتساءل عنها فى النص السابق هى صلات بين العرب ومن حولهم من الأعاجم . فتشكيكه فى العبقرية وتجويزه التقليد على القرآن قاطع فى أنه لا يرى القرآن من كلام واهب العبقرية وفاطر الإنسان ، ولكن من كلام بشر مشكوك حتى فى عبقريته

وصاحب الكتاب يعرف هذا الرأى من نفسه ، ويعرف

بعد ما بينه وبين ما عليه المسلمون ؛ كما ترى من قوله بعد ذلك النص « ولكن مثل هذا البحث فى رأيي خطر على الباحثين المسلمين فى الوقت الحاضر : لأن الرأى العام فى مصر والشرق الإسلامي لا يسمح بدرس القرآن درساً تحليلياً يبين ما فيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة . والمستشرقون أيضاً لا يهتمون بمثل هذا البحث ، لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبى قبل الإسلام » . فإذا صح ما نقله هذا الرجل عن المستشرقين فالمستشرقون أقرب منه إلى الإسلام إذ ليس بينهم وبين الإسلام إلا أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، ويتبعوا النتيجة الحتمية لوجود القرآن مع ما اقتنعوا به من أن العرب لم يكن لهم وجود أدبى قبل الإسلام . أما هو فقد رأيت ما قال

وليس ذلك كل ما قال ، فقد قال أيضاً فى صفحة ٤٦ « وليس أمامنا أى دليل على أن القرآن متأثر تأثراً محسوساً بآداب أخرى أجنبية وإن كان هذا ممكناً لأن العرب قبل الإسلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم »

وقال أيضاً من صفحة ٤٧ « ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبقت الإسلام لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن ، لأن التطور الكبير الذى ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح إلى روح لا يتم فى خمسين سنة مثلاً ، وإنما يتطلب مدة طويلة ، خصوصاً فى أمة بدوية محافظة قليلة الاختراع والتبديل فى لغتها وأسلوبها » . اقرأ هذا واحكم ما رأى صاحبه فى القرآن ، أأنزله الخالق معجزة للخلق على الدهر ، أم هو من كلام الناس تطور روحه وأسلوبه كما يتطور الروح والأسلوب فى كلام البشر ؟

ثم اقرأ له من صفحة ٥١ : « وإنما ينبغى أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوى متين يقرب فى روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه ، فإن البيئة واحدة ، واللغة واحدة ، والعصر واحد » فإذا قرأت له عقب ذلك « ولم يكن محمد إلا بشراً أفهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة » عرفت أن صاحب الكتاب يرى القرآن من كلام محمد ، وعرفت أيضاً أنه يفترى على القرآن فإن القرآن وإن قال إن محمداً بشر لم يقل إنه أفهم هداية قومه ، فإن ماده « ألهم » لم ترد قط فى القرآن

فإذا قرأت له من صفحة ٦٠ « فإن القرآن يسجع أحياناً ولكنه لا يلتزم السجع ، لذلك نجا من التكلف والابتذال » عجبت لهذا الكاتب المدعى البصر بالفصاحة والبيان ، كيف لم يجد ما يقوله فى سجع القرآن إلا أنه نجا من التكلف والابتذال ! وهو ثناء يشبه الذم لو أنه قيل فى سجع أحد الفصحاء مثل ابن العميد الذى يستحسن صاحب الكتاب سجعاً له كل الاستحسان (صفحة ١٥٧) ، فكيف به وقد قيل فى القرآن

ولعلك لاحظت أنه حين (نجى) القرآن من التكلف والابتذال فى السجع رد ذلك إلى أنه يسجع أحياناً ، أى إلى قلة السجع لا إلى السجع نفسه . فإذا قرأت له قوله من صفحة ٦٥ « ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ، وعدنا إلى نص جاهلى لا ريب فيه وهو القرآن ، لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية » لعجبت لهذا الرجل كيف يكتب . ألم يقل قبل إن القرآن يسجع أحياناً ؟ فكيف يجعل السجع الآن إحدى سماته الأساسية ؟

ومثل آخر من إنزاله القرآن منزلة كلام البشر قوله من نفس الصفحة « والقرآن نثر جاهلى ، كما أوضحنا ذلك من قبل ! (والتعجب من عندنا لأنه لم يوضح بأكثر مما قدمنا لك) والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان . ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين ولا تنس أن الوثنية كانت ديناً يؤمن به أهله فى طاعة وخشوع ، وكانت لهم طقوس فى هياكلهم . وكانت تلك الطقوس تؤدى على نحو قريب مما يفعل أهل الكتاب من النصارى واليهود » !

أفترى هذا الكلام يحتاج إلى تعليق ؟! أم هل ترى كلاماً أوضح وأدل على رأى هذا الأفاك ؟ إذن فاقرأ له ما قال بعد

ذلك : « والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب فى صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات ، والفرق بين اللغتين يرجع إلى المعانى ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال . ذلك بأن الديانات الثلاث الإسلام والنصرانية واليهودية ترجع إلى مهد واحد هو الجزيرة العربية . فاللون الدينى واحد ، وسورة الأداء تكاد تكون واحدة » ! فقد رأيت الآن ! لقد صارحك صاحب النثر الفنى بذات نفسه ، لا عن القرآن فقط وتقليده حتى الوثنيين فى الصورة والشكل ، ولكن عن الأديان الثلاثة كيف أنها كلها بنت البيئة ، بنت الجزيرة العربية ، ولك أنت أن تسأل لماذا أغفل الوثنية فلم يجعلها رابعة البنات !

الرجل بقوله هذا قد وضع بين أيدى الناس المفتاح إلى مذهبه فى القرآن والدين ، وليس النص السابق فلتة فاتت الرجل ، فقد ذكر رأيه فى الدين وفى القرآن فيما كتب بعد النثر الفنى بما يتفق مع هذا الذى كتب فى « النثر الفنى » وأين ؟ سأخبرك ببعض ذلك ، وفى البعض بلاغ

كان الأستاذ أحمد أمين علل فقدان الملاحم والمنظومات الطويلة في الشعر العربى بتقيد الشعراء بعد العصر الجاهلى بقيود الشعر الجاهلى ، فرد الدكتور زكى مبارك عليه يقول فى صفحة ١٣٩٣ من العدد ٣١٥ من الرسالة « إن عبقرية العرب ليست فى القصص وإنما عبقرية العرب فى الغناء والتعبير عن الأنفاس الروحية . وفى بلاد العرب نشأت الديانة الموسوية والديانة العيسوية والديانة المحمدية ؛ فإن امتازت لغات الشرق والغرب بالمنظومات الطويلة فى القصص والتاريخ ، فقد امتازت لغة العرب بأكرم أثر عرفه الوجود وهو القرآن . وهو حجة اللغة العربية يوم يقوم التفاخر بين اللغات بالأحساب » والأستاذ أحمد أمين كان يتكلم عن أدب العرب مقارناً إياه بأدب غيرهم من الأمم والشعوب ؛ فهذا الرد من زكى مبارك لا يصلح رداً إلا أن تكون الديانات الثلاث من وضع العرب ؛ وإلا أن يكون القرآن من أدب العرب كذلك

* * *

وبعد ، فقد كنت أسندت إلى زكى مبارك تهماً ثلاثاً : أنه يدعو إلى نقد القرآن ، وأنه ينكر إعجاز القرآن وأنه يكاد يصرح بأن القرآن من كلام البشر ، وطلبت إليه أن يتبرأ أو أثبت ، فأجاب إنى لا أفهم كتابه ، وأنه لا يتبرأ منه ولو ذهب معه إلى جهنم الحامية ، فكان لا بد من الإثبات . وقد فعلت ، وإن لم أستقص ما فى كتابه وما كتب بعده من دليل . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

محمد أحمد الغمراوى

الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصرى

يقدم

إلى المربين والمعلمين والوالدين والمفكرين كتابه الجديد

آراء وأحاديث

في

التربية والتعليم

وهو خلاصة مطالعات ، ونتيجة مشاهدات ، وزبدة تجارب ، فى ترتيب منطقى وأسلوب سهل وصورة مشوقة . والقسم الثالث منه خاص بنظام التعليم فى مصر ونقده وبحث مشكلة التعليم الإلزامى فيه

يباع فى إدارة مجلة الرسالة وفى سائر المكاتب الشهيرة

وثمنه ثلاثون قرشاً عدا أجرة البريد